

بسم الله الرحمن الرحيم
واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا

رابطة العالم الاسلامي
الامانة العامة
مكة المكرمة
ادارة المؤتمرات

علاج المشكلات النفسية للمجتمع المسلم

بقلم

د/ محمد سيعد رمضان البوطي

بحث مقدم الى رابطة العالم الاسلامي بمناسبة انعقاد مؤتمرها
الاسلامي العام عن (الدعوة الاسلامية وسبل تطويرها) فسي

الفترة من ١٧ - ٢١ صفر عام ١٤٠٨ هـ

=====

(م. ر)

٢٠/١

ان الانسان كيان ثنائي التركيب، ان هو ذو جسم :
أولا : الهيكل الجسدي الذي يبنى ويخلو به .
ثانيا : جنة انفسه الحيوانية التي تمتد لاسما مشتركة بين سائر الحيوانات الاخرى .
ثالثا : الروح : هذا المبدأ الذي يشرق على السطح فيكون روحا وبلا روحه كس طير الطيب
فيكون وحدا . ويشتد برأيه المدين وغداه فيكون حيا وشهدا .
وهذه الروح التي يتخلف بها الانسان ، ليست كما قد يتصور بعض الباحثين
مجرد شرط لحياته كسائر حيوانات الاخرى بل هي في الازليان

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين .

وبعد : فان هذا البحث ، يدور على هدف كلى ، هو محاولة الكشف عن جذور المشكلات النفسية
التي يعاني منها المجتمع الاسلامى ، ثم الانتقال منها الى استعراض اهم الفروع المنتشرة لها ..
ثم تلخيص العلاج الذى يقضى على جذور هذه المشكلات اولا ، ويقضى على فروعها المنبثقة عنها
ثانيا .

وهو يسير ، تحقيقا لهذا الهدف المرسوم ، على الخطة التالية :

أولا : عرض مقدمة تتألف من ثلاث نقاط :

* حقيقة الانسان

* المعنى أو الشئ الذى يتوجه اليه الاسلام من الانسان

* الثمرة التربوية للاسلام فى كيان الانسان .

ثانيا : عرض لاساس المشكلات النفسية كلها .

ثالثا : بيان لاهم المشكلات الفرعية وابرز آثارها النفسية . وهى :

١- العصبية للذات والانتصار للنفس

٢- فقد الاستقرار النفسى والفكرى

٣- انجذاب الشخصية المسلمة الى فلك الحضارة الغربية

رابعا : علاج هذه المشكلات

١- العلاج الكلى للمشكلة الكلية :

بيان للمنهج السلوكى الى تزكية النفس

٢- اثر هذه العلاجات فى حل المشكلات الفرعية :

كيف يكون السبيل الى استعمال العلاج ؟

خامسا : أخطاء يجب التخلص منها :

* التهور من اصول تربية النفس وأخذ القلب بما دتى التزكية ، ونظر الكثير الى وسائل

ذلك من ذكروا نحوه ، على انها تهبط الى درجة متدنية بالنسبة للانتقال بالعلم .

* تركيز كثير من الدعاة والموجهين على الجوانب السلبية فى تعليم الناس وارشادهم ، دون

اتباع ذلك بالبناء الايجابى .

* المكون من كتب التراث على ما يتضمن البحوث العلمية ، ولا سيما النقدية ، واهمال ما

يتعلق منها بمعالجة القلب وتزكية النفس .

لا بد لعرض المشكلة التى نحن بصدد حلها ، وبيان علاجها ، من مقدمة وجيزة نسبتيين فيها

ثلاثة اشياء ، تعد بحق موضوع هذا البحث ومداره :

أولها : حقيقة الانسان

ثانيها : المعنى أو الشئ الذى يتوجه اليه الاسلام من الانسان .

ثالثها : الاثر التربوى الذى ينبغى ان يحققه الاسلام فى كيان الانسان .

اذن ، فلنبدا حديثنا ببيان موجز جدا لهذه الاشياء .

١- ما الانسان ؟

ان الانسان كيان ثلاثى التركيب . ان هو مؤلف من :

أولا : الهيكل الجسدى الذى يروح ويفدو به .

ثانيا : جملة الفرائز الحيوانية التى تعد قاسما مشتركا بينه وبين سائر الحيوانات الاخرى .

ثالثا : الروح : هذا السر الذى يشرق على الدماغ فيكون وعيا وعقلا ، وينعكس على القلب

فيكون وجدانا ، وينتشر فى اجزاء البدن وخلاياه فيكون حياة وشعورا .

وهذه الروح التى يتمتع بها الانسان ، ليست كما قد يتصور بعض الباحثين ،

مجرد شرط للحياة كسأئها فى سائر الحيوانات الاخرى . بل هى نوال انسان

تنطوى على سر آخر يمتاز به عن سائر اصناف الحيوانات ، ولا ادل على ذلك من

قول الله عزوجل " فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقموا له ساجدين " (ص: ٧٢)

فقد نسب الله جل جلاله الروح الانسانية الى ذاته العلية ، من دون ارواح سائر الحيوانات الاخرى . وهى نسبة تدل على حقيقتين اثنتين :

- اولاهما : قدسية هذا السروسمو منزلته عند الله عز وجل ، بما قد اودع فيه من خصائص ومزايا .
الثانية : احتجاب كفة هذا السر عن العقول كلها ، واستئثار الله عز وجل بحلم حقيقته .
فلا مطمع لحلم عالم ، من دونه ، مهما بلغ واتسع ، ان يدرك حقيقته ، ويتبين مجراه من كيان الانسان .

وعلى هذا ، فقد صح لنا ان نقرر بان الانسان كيان مؤلف من هيكل جسدى ، وقوى عقلية ، وعواطف وجدانية ، ودوافع فريزية .

٢- لمن يتوجه الاسلام ؟

فاذا عرفنا الانسان من حيث هو كيان مؤلف من هذه الاركان ، فان من المهم ان نعلم ان الاسلام انما هو ذلك النور الهادى الذى وجهه الله عز وجل بالرعاية والارشاد لهذه الاركان الثلاثة فى عمق الكيان الانسانى . اى فلا يكون الانسان مسلما لله حقا ، الا اذا اسلم له عقله ايمانا وتصديقا ، واصطبخت به عواطفه حبا ومهابة وتعظيما ، واستسلم له اعضاؤه وغرائزه سلوكا وتطبيقا .

وهذا هو المعنى الدقيق المراد بقوله عز وجل " قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك امرت ، وانا اول المسلمين " (الانعام : ١٦٣) وهو بعض مما يدل عليه قوله تعالى : " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله مسن اتباع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور . . "

٣- الثمرة التربوية للاسلام فى كيان الانسان :

فاذا اصطبغ الكيان الانسانى كله بالاسلام ، على النحو الذى اوضحناه ، تحقق له مسن ذلك اثر تربوى فى داخله . ويتلخص هذا الاثر فى تألف العقل مع كل من الفريزات والوجدان ، وفى انسجام هذه الجوانب الثلاثة من الكيان الانسانى فى الاتجاه الى هدف مشترك والسير على صراط واحد . وبوسعنا ان نعلم ، لدى تأمل يسير ، ان هذا قصارى ما تهدف اليه فنون التربية ومناهجها فى حياة الانسان . ان كل ما تهدف اليه ، على اختلاف مذاهبها ومناهجها ، هو اغضاع الوجدان والسلوك ، لمقتضيات المعرفة الانسانية الصحيحة .
غير ان من الثابت يقينا ، انه ما من وسيلة تربوية ، تملك ان تحقق هذا الهدف التربوى الا قدس فى حياة الانسان غير الاسلام . فلقد بذل علماء التربية قديما وحديثا جهودا - شاقة ومتنوعة ، ابتغاء تطويع كل من العاطفة والفريزة الانسانية ، لما يقتضيه قرار العقل الانسانى ، دون ان تثمر جهودهم اى ثمرة ايجابية على هذا السبيل . وذلك لاسباب وعوائق كثيرة ، لا مجال للتصريف بها والحديث عنها فى هذا المجال .

الا ان هذا الذى عجزت السبل التربوية المتنوعة عن بلوغه وتحقيقه ، حققه الاسلام فى كيان اصحابه ، من ايسر سبيل ودون اى عائق . وان لنا فى تراجم ذلك الرعيل الاول ، صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم ، لا كبر شاهد وأوضح دليل على ما نقول . على ان هذا الشاهد يمتد واضحا مستمرا فى حياة كل من جاء من بعدهم ، فاعتنق الاسلام بجد واخلاص . وان نظرة سريعة منا الى الحالة النفسية والسلوكية لذلك الرعيل الاول ، فى شطر حياتهم الجاهلية الاول ، مع مقارنتها بالحالة النفسية والسلوكية ذاتها فى شطر حياتهم الاسلامية الثانى ، لتنتطق نطقا بينا بهذا الحق الذى نقول . بل اننا لنجسد البرهان ذاته لدى المقارنة بين حياة اى من هؤلاء الفريزين الذين يهرعون سراعا الى اعتناق الاسلام ، قبل وبعد عهد هذه الهداية الربانية فى حياة كل منهم الشخصية .

أساس المشكلات النفسية كلها

من خلال هذه المقدمة الوجيهة ، يمكننا ان نتبين مصدر المشكلات النفسية المتنوعة التي تطوف على سطح مجتمعنا الاسلامي . ومن ثم فان المهم هو ان نقف على المصدر ونتأكد منه ، لا ان نلاحق النتائج المتفرعة عنه .

أساس المشكلة - على ضوء ما أوضحناه - ان جل المسلمين انما سرى الاسلام ، في احسن الاحوال ، الى كياناتهم الفكرية ، ثم وقفوا عندها ولم يتجاوزوها الى مكن العواطف والوجدان من انفسهم .

اي فالاسلام عقيدة قابعة في مستقر الوعي والادراك من اذهان اكبر الناس وعقولهم . اما ساحة الوجدان من نفوسهم ، بحيث تجيش العواطف الدافعة والراعدة والمجددة ، فبحيدة عن سلطان الاسلام وهديه ، واقعة في جاذبية الشهوات والاهواء الخريزية المختلفة . . .

وهكذا ، فان الاسلام في حياة هؤلاء الناس ، انما يتصل بقناعاتهم الفكرية فقط ، على احسن الاحوال كما قلنا ، وتظل الجوانب الاخرى في انفسهم بعيدة وطليقة عنه ، بل متشاكسة معه . . .

وقد علمنا ، مما قرره علماء النفس قديما وحديثا ، ان دوافع السلوك في حياة الانسان انما يتمثل معظمها في عواطف الرغبة والرغبة ، اما قرار العقل والفكر فلا يمثل من هذه الدوافع اكثر من ٣٠ ٪ . ولو كانت قيادة السلوك الانساني بيد القرار العقلي وحده ، لتلاقى الناس جميعا على صراط الهداية والن رشد ، لان العقل الانساني لا يتيه عن الحقائق الجلية الكبرى ، وان اجتهد في فروعها ومستلزماتها الفسرية الضغرى . ولكن الاهواء والرغائب النفسية ، هي التي تستقل بالدوافع السلوكية للناس ، مهما لاحقهم العقل بنداء النصيح والتنبيه والتحذير . وعندما يتقلص سلطان الاسلام عن ساحة العواطف والوجدان في كيان الانسان ، شمس ينكمش متقوقعا على ذاته في سجن الدراية العقلية وحدها ، تبرز من جراء ذلك حالة من الانزواء المتشاكس في كيان هذا الانسان ، فيخدو مسلما بعقله وفكره ، طليقا بعيدا عن الاسس بعواطفه ووجدانه ، ومن ثم بغرائزه ايضا . وانما يكون زمام السلوك ، كما قلنا ، بيد العواطف المسلحة بسلاح الغرائز والاهواء ، لا بيد الفكر الضعيف الاعزل الا من حجة الاخبار والبيان . ومن هذا المصدر الوحيد تتفرع سائر المشكلات النفسية المتنوعة ، التي قد يعاني منها الفرد المسلم اليوم ، والتي تنعكس بمظاهرها المؤلمة الخطيرة على صعيد المجتمع الاسلامي كله .

أهم المشكلات الفرعية وأبرز آثارها النفسية

وعلى الرغم من انه لا يعنينا في هذا البحث ان نقف عند تحليل هذه المشكلة الفرعية والاسهاب في بيان آثارها ونتائجها ، فانه لابد من تعداد لاهمها ، وتعريف موجز بكل منها ، حتى اذا أوضحنا ذلك بالقدر الذي لابد منه ، انتقلنا الى الحديث بشيء من التفصيل فسي علاج ذلك وهذه هي اهم هذه المشكلات :

أولا : العصبية للذات والانتصار للنفس :

ومرد هذه العصبية الى طبيعة الانانية ، الكامنة في كيان الانسان ، وهي من أخطر الافات النفسية التي اوجب الاسلام على الانسان معالجتها والجهاد الدائب للتحرر منها . وهذه الانانية قد تتمثل في (النزعة الفردية) عند بعض الناس ، وهم الذين تهيات لهم ظروف تقديس اشخاصهم اكثر من ظروف الانخراط مع اقوام أو فئات ، أو الانتصار لرأي أو مذهب ، وقد تتمثل في (النزعة الجماعية) عند آخرين ، وهم الذين شغلوا عنهم فرديتهم بالانتصار للذات ، من خلال الانتماء الى مذهب ، أو الانضمام الى قوم أو هيئنة

أو جماعة .

ان كلا هاتين النزعتين تعبيران - بلا ريب - عن كبرياء النفس وأنانيتها ، ولكنها تسهم في
الى تغذية نزعتها هذه عن طريق احد هذين المسلكين ، حسب الظروف المحيطة والوسائط
الممكنة .

غير ان العصبية الناجمة عن (النزعة الفردية) انانية مكشوفة واستكبار معلن ،
ومن ثم فان الشأن في صاحبها ان يلقى في طريقه الى ممارستها عنتا وعقبات كثيرة ، وهو
الامر الذي ينبه المجتمع الى التوفى منه والسدر منه ومن أمثاله ، فلا جرم أن خطره الاجتماعي
أقل ، وان جل آثاره الضارة انما تعود الى صاحبه .

أما العصبية الناجمة عن (النزعة الجماعية) فاستكبار خفي ، لا يتحرك الا تحت قنصاع
الانتصار للحق والدعوة الى ما يقضى به المنطق والعقل ، ومن ثم فان صاحب هذه النزعة
يلقى للتغلب في المجتمع والتأثير عليه طريقا ، بل طريقا ، أوسع ، ولا يعدم أن يجد أو -
يجمع من حوله جندا من الانصار والمؤيدين ، حيث ينصهر الكل من بعد ، في بوتقة هذه
الانانية الجماعية التي تدعو الى الحق ظاهرا وتنتصر من خلال ذلك للذات وللنفس باطنا .

فلا ريب ان خطر هذه النزعة الثانية أعمق في النفس ، وأكثر انتشارا في المجتمع وتأثيرا عليه .
ومن أسوأ آثارها ، سحق مشاعر الود والتآلف بين قلوب الافراد والجماعات ، وإشاعة
عوامل الحقد والبغضاء فيما بينهم ، وتحويل الامة والمجتمع الى فئات متناحرة متصارعة . ان يزعم
كل منها أنه وحده المتمسك ، من دون الآخرين ، باهداب الحق . ذلك لان كلا منهما انما
يعتمد في الاستدلال على ما يرى انه الحق ، بما توحى اليه به نفسه ، ويتفق مع منهج عصبته
وعصبيته ، لا بما ينطق به العقل السليم ويقرره البهتان العلمي الصحيح في تجرد وصفه .

واذا تأملنا في ظاهرة انقسام المسلمين اليوم الى فئات وجماعات ، متداهرة متباغضية ،
وبحثنا عن العوامل الكامنة وراءها ، علمنا انها تتلخص في عامل العصبية هذا . . . هذا
العامل المهلك الذي يتبدد معه رشد العقل ويهتج من وراءه زعونات النفس وأهواؤها ،
ان تستبد (الانانية الجماعية) بنواصي الحقائق العلمية والدينية والقضايا المصيرية . . .

والا ، فما الذي يجعل اخوة من المسلمين ، يتهارجون في قلب مسجد هم الواحد ، ثم
يتقاتلون ولا مقاتلة العدو للعدو ؟ . فما الذي يحميمهم على ان يخرجوا من حصن المسلمين
الكلية المشتركة التي بوسعها ان تؤلف فيما بينهم ، ليشرذوا وينتشروا في بهائم الخلافات
الاجتهادية الفرعية ومنعرجاتها ، ابتغاء ان يجعل كل من رأيه وحده الحق الذي لا يتسلل
الباطل اليه ، ومن رأى خصمه الباطل الذي لا يمكن للحق ان يدنو الى طرف من أطرافه ؟
ما الذي يحمل الواحد من هؤلاء على ان يتحول من التقدير للفكرة والهدأ الى تقدير
للشخص والكيان ، بحيث يفقد واقع الشخص الذي يقدره هو مقياس الحق الذي يؤمن به ،
بدلا مما ينبغي ان يكون الامر عليه ، من اتخاذ الحق وحده مقياسا لتقويم الجماعات
والاشخاص ؟ . . .

ثانيا : فقد الاستقرار النفسي والفكري :

وهذه المشكلة تنشأ بدورها عن عوامل اجتماعية يطول ذكرها ، من شأنها - اذا بقيت
لفترة طويلة - ان تزج افراد ذلك المجتمع في الوان من القلق النفسي والاضطراب الفكري
والشعوري . وأيا كانت هذه العوامل ، فمن الطبيعي ان تثور في حياة الامم والشعوب فوضى
ظروف معينة ، وان تترك في النفوس آثارا من الاضطراب والقلق ، ولكن ذلك لا يعدو ان يكون
أمرا عرضيا عابرا ، ولا سيما عندما تمر تلك الامم أو الشعوب في منعطاف حضاري كالذي نمر نحن
فيه اليوم .

غير ان الهلاك العظيم ، الذي نعاني منه ، انما يتمثل في طول الفترة الزمنية المستترة
استغرقها مرورنا في هذا المنعطاف ، حتى لقد كدنا ان نعد أنفسنا سجيناً فيه . . .

وانها لفترة طويلة عفا . . بدأت منذ أواخر عصر الخلافة العثمانية الى يومنا هذا . . . عصر طويل من الدمار ، ونحن مبعثرون خلاله في سجن هذا المنعطف . . . تقطعت بنا السبل عن الماضي ، فما نملك اليوم شيئا من ذخره أو مقوماته ، اللهم الا الوصف والذكرى بعد فخر الانتماء والانتساب . . . وتخلفت بنا العشرات فيه عسى المستقبل ، فما يربطنا به الا الاحلام والاماني . . .

ولم يكن التصاقنا بهذا المنعطف أمرا عائدا - في الجملة - الى اختيارنا . بل تضاعفت عليه عوامل مختلفة أفقدتنا القدرة على التحكم بأمرنا :

(١) هزمت الخلافة العثمانية وأصابها الوهن وتسلسل اليها الفساد ، بمقدار ما كان لها العقل الوافر من قبل ، في القوة والصلاح ، ثم انتشرت خطاما بفعل الحواصيف الطورانية التي اهتمت من داخلها والخطط الصهيونية التي احاطت بها كخيوط الحناكب من خارجها (١) .

(٢) نهضت الدول الأوروبية نهضتها ، ودخلت عصر النجار الذي يشبه اليوم عصر الفضاء . وركبت متن الدراية والصناعة والعلم ، فانبهرت ابصارنا لمراى هذه النهضة . وكان من اهم اسباب ذلك انحسار اسباب القوة من حياتنا واشتغالنا بحال (الرجل المريض) دفاعا عنه أو تصجيلا بموته . . ثم انتثار عقد وحدتنا بين أيدي الناهبين والمقتسمين .

(٣) كان من آثار هذا الانبهار ، ذلك السعى التقليدي الاعى وراء الغرب ، أملا فسى نهضة كنهضتها ، واخذنا نضع الاسلام في قفص الاتهام ذاته الذي وضعت اوربا فيه دينها . .

ولقد استغلت بريطانيا واقع هذا الانبهار آنذاك ، فحاولت - وقد نجحت فسى محاولتها - ان تضع لهذا الانبهار فلسفة غرستها في اغوار نفوس كثير من افراد هذه الامة آنذاك . . ان أوهمتهم ان أية نهضة اسلامية كالتى نهضتها اوربا ، لا تتم الا من وراء ثورة اصلاحية في نطاق الايدولوجيات العامة والعقائد الدينية ، مهما اختلفت مضامين هذه الايدان بعضها عن بعض . . وسرعان ما خدع بهذا الكلام كثير من الباحثين والمفكرين ، فوضعوا لبلادهم برامج اصلاحات دينية اسلامية ، كالتى وضعها اقطاب النهضة الأوروبية والثورة الفرنسية ، دون اى رجوع الى فوارق المضمون والظروف ، ودون اى تعكيم لموازين العلم والبحث . . . وهكذا ، فان هذه الحوامل التى اشير اليها هنا باختصار ، زجت بنا في هذا المنعطف الذى حسبنا فى داخله ، والذي لانزال نتعثر فيه الى يومنا هذا . . .

فلا نحن ابقينا صلاتنا المنسجمة مع الماضي ، تحت سلطان السنن الكونية للتطوير ، في ميزان المنطق والعلم ، ولا نحن حققنا شيئا من امنيات اللحاق بنهضة كالتى نهضتها اوربا . . بل بقينا ، كما قلت ، نتحرك في اضطراب داخل هذا المنعطف الممل الثقيل . وقد كان لابد - والحالة هذه - ان تطرح افكار وشعارات متناقضة متصارعة ، بعضها

يتنكر للماضى كله ، لمجرد انه ماضى وقديم . . وبعضها يذهب الى النقيض من ذلك ، فيحارب كل جديد لمجرد انه عنوان تناقض مع القديم . وآخرون ينادون ، في ترد وتذبذب ، بتحكيم نبراس الاسلام ومنهاجه في الامر . وذلك بقول كل ما يرى انه حق وخير مهما كان

وافدا وحديثا ، ورفض كل ما يرى انه فاسد وباطل ، مهما كان اصيلا وقديما . فهؤلاء واولئك والآخرين ، لا يزالون يتصارعون . . يتصارعون في جو نفسانى هائج ، لا يكاد يسمح للعقل ان يهيمن ، ولا للفكر ان يصفو ويقرر . وانما الذى يهيمن فيه النفس وعظوظها والاهواء وأهدافها ، حيث يضيغ في غمار ذلك صوت العقل والمنطق مهمسا استبان أو ارتفع .

(م . ر) (١) اقرا مذكرة حاييم دايمن ، وما ذكره من التخطيط للقضاء على الخلافة العثمانية في سبيل الوصول الى فلسطين . . .

وهو سببنا ان نلاحظ انعكاس هذا الصراع على مناهج التربية والتعليم ، وانتشار أصدائه الى اجهزة الاعلام ومنابر التبليغ والارشاد ، فيسرى أوار هذا الصراع في هذه الاقنية كلها ، ليصل بشكل اعظم عتوا وأكثر تشنجا الى الجيل الناشئ الجديد .
في هذا المناخ الذي وصفت ، لابد ان يتبدد الاشراق الفكري ، ويذول الاستقرار النفسي ، ويحل محله القلق والاضطراب . وباستمرارها يسود الاضطراب وينتشر في ارجاء المجتمع وانعائه . وحل الامة أو المجتمع الا الفرد المتكرر ؟
ثالثا - مشكلة انجذاب الشخصية المسلمة الى تلك الحضارة الغربية :

وهي من اخطر المشكلات النفسية التي يبرز تحتها المجتمع الاسلامي اليوم . وما من ريب في ان الامة الاسلامية - في مجموعها - تقع اليوم ، بكل موازينها الفكرية ومشاعرها - الوجدانية ، في منطقة الجاذبية الغربية . فهي مهمات عركت لا تتقلب الا ضمن سلطان التأثير بها والدوران حولها والانمطاف اليها . . .

وقد يخيل لاحدنا ان كثيرا منا يناقش الافكار والقيم الوافدة ، بكامل التحرر ومنتهم - التجرد . غير ان مورد التفكير والتمييز في نفوس هؤلاء المناقشين عامة ، مطبوع بقناعة عميقة خفية ، بان لا سبيل للتعامل مع الكون والحياة اليوم ، الا طبقا لموازين الحضارة الغربية . ذلك لان هذه الحضارة فرضت نفسها - على حد تصورهم ، وتصريحهم في كثير من الاحيان - على حركة الحياة الاجتماعية بكل انواعها واتجاهاتها .

ولذا فان كلا من (الممكن) و (غير الممكن) في منطقهم الفكري والجدلي ، انما يستلهم حقيقته ومقياسه من مقتضيات تلك الحضارة وقراراتها . . .

ولاشك ان ثمة اصواتا ترتفع هنا وهناك ، يقف اصحابها خارج منطقة النفوذ ، أو على حافتها ، غير ان هذه الاصوات لم تبلغ الى الان ان تشكل تيارا يتمتع بأية جاذبية متكافئة . ومن أبرز ما أفرزته هذه المشكلة النفسية الخطيرة ، اننا لم نجد نملك (على الصعيد العملي) أية قاعدة حضارية ثابتة ننطلق منها لمناقشة المبادئ والثقافات والقيم . أي فنحن لانملك اليوم ذاتية نابعة من كياننا وتاريخ وجودنا ، نستلهم منها أية قواعد فكرية أو ثقافية متميزة ، تحدد معالم وجود حضاري مستقل لنا ، وتمتصنا بذاتية ننطلق منها الى البحث والنقاش .

فأصولنا الثقافية التي كانت مصدر حضارتنا العظمى ملقاة اليوم على رفوف الاهمال ، بل مرمية في زوايا النسيان . . . وانما يتم الاعتماد اليوم على اصول ثقافية اخرى اقتطعناها ، كما هي ، من الغرب ، بكل ما نحمله من تسويات للنزعة المادية التي تولد الطبيعة ، وتجعل الانسان سيد نفسه والمالك لمصيره .

ان فنون التربية وعلم النفس والاجتماع والفلسفة والاخلاق ، التي تدرس في مدارسنا وجامعاتنا ليس كل منها الا مجموعة نظريات وتصورات وضعت تعبيرا عن النظرة الغربية الى الوجود ، ودعا لبناء - المجتمع الذي ارتضاه لنفسه الغرب . ولا شك انها تتناقض ، بشكل حاد ، كليا او جزئيا مع مبادئنا ومسلماتنا الاسلامية الراسخة التي كانت الى الامس القريب مصدر ثقافتنا وسياج حضارتنا .

والغريب اننا ننظر ، فنجد ان هذه الفنون الثقافية من تربية واجتماع وفلسفة وعلم نفس ، انما تصاغ في كل مجتمع من المجتمعات تعبيرا عما ارتضاه لنفسه من اصول فكرية وقيم حضارية الا في مجتمعنا العربي المسلم ، فانها لا تدرس عندنا الا من وجهة الاخرين وتعبيرا عما ارتضوه هم لانفسهم . . . فهي في الوقت الذي تكون مرآة صقيلة يطالع كل مجتمع من المجتمعات عليها ذاته ، لا تكون في مجتمعاتنا الا مرآة نطالع من خلالها وجوه الاخرين . . . ومن ثم ففنان دراستنا لهذه الفنون الثقافية لا تعنى اكثر من اننا نفكر بعقول غيرنا ، ونخزن في ادماغنا المفرزات والنتائج التي لا جذور لها في حياتنا الراهنة ولا تاريخنا الخابر . ثم نندفع في محاولة ملحة الى ان نبني - مع ذلك - صرح وجودنا الحضاري عليها ! ! !

(١) اقرا فصل (سلطان الثقافة الغربية على الفكر الاسلامي المعاصر) لعبد مبارك .

ولا تتفك المشكلة عند هذا الحد ، بل انها لتشتد من خلال الواقع النفسى الذى يحانى منه كثير من ارباب الفكر والنار فى حياتنا الاجتماعية ، الى درجة لا يبالى ان يطرح معها ارباب تلك النفوس العمل الوحيد فى نثارهم لمشكلة الصراع بين الاسلام والحضارة الغربية . والعمل الوحيد الذى يتقدمون به انما يتمثل فى : (قراءة جديدة للقرآن ، يتم فيها تجاوز قبول التفسير اللغوى ، بحيث يتوصل من وراء هذه القراءة الجديدة الى صيغة يتم فيها التوفيق بين الاسلام والحضارة الغربية) (١) .

واوضح ان التفسير الوحيد لهذا العمل انما هو الدعوة الى زج الاسلام هو الاخير - بكل اصوله ومبادئه واستقامه - فى تلك الجاذبية الغربية ، بحيث يتحول من عقبة تقف فى وجه عشاق الحضارة الغربية ، الى مجرد ذيل لها ، بل ادارة من ادواتها ، وبذلك يفقد الطريق معبدا وعريضا الى التعامل مع الكون والانسان والحياة على الطريقة الغربية ، ويصبح الاسلام عندئذ مجرد مصباح على هذا الطريق ، وينتهى العهد الذى كان فيه للحضارة الاسلامية وجود مستقل ، بل متفوق فوق هذه الارض . وتفقدوا اثرها بعد عين او تنطوى على نفسها لتتحول الى صفحة مستهلكة فى مجلد الحضارة الغربية .

فهذه هى اهم المشكلات النفسية المتفرعة عن تلك المشكلة الاساسية الكبرى التى المنحنا اليها ، فى صدر هذا البحث . . . واليها وحدها مرر حل المشكلات الاجتماعية وكثير من المشكلات الفكرية التى يقوم ويقعد بالحدوث عنها والبحث عن علاجها كثير من الكتاب - والباحثين اليوم .

علاج هذه المشكلات

أولا : العلاج الكلى للمشكلة الكلية :

اذا كانت هذه المشكلات الثلاثة فروعا - كما اوضحنا - لمشكلة اساسية كبرى ، فلا ريب أن علاج هذه المشكلات الفرعية ، لا بد ان يكون نحو الاخر فرعا عن علاج اساسى ، اليها ممر حل تلك المشكلة الكبرى .

ولقد اوضحنا ان جذور هذه المشكلات النفسية كلها ، انما تكمن فى ان الاسلام لا يعطى من كيان الانسان اليوم الا بجزء منه فقط . وهذا الجزء ، فى احسن الاحوال ، انما هو الفكر وحده أما وجدانه المتمثل فى العواطف الدافعة والراعية والمجددة ، فمشغول ومضطرب عنه بشواغل وملهيات شتى . . . اذن يصدق القول بان كثيرا ممن يعتنقون الاسلام اليوم ، يتمتع كل منهم بشخصيتين مزدوجتين . وانما هو مسلم باحدهما فقط ، وهى الشخصية الفكرية . وفى اعتقارى انا اذا تفهمنا ان هذه هى المشكلة الكبرى ، امكنا ان نقع على علاجها وان نحدده فى سهولة ويسر . . . فما هو العلاج ؟

انه ، بأبسط عبارة واضحة : بذل الوسائل الممكنة ، لا خضاع الكيان الانسانى كله للاسلام بحيث يتفهمه العقل ، ويتعلق به الوجدان ، ويخاف الى الاستجابة له البدن والاعضاء . ولا اظن ان هذا العلاج بجعله أحد ممن وعى المشكلة التى المنحنا اليها . ومن ثم فلان حلها لا يكمن فى مجرد الاشارة الى حيث يوجد العلاج . . . وانما يكمن فى ايجاد الرغبة الصادقة - قبل كل شئ - فى استعماله .

ومن المعلوم ان هذا هو الشرط الاول لبلوغ أى هدف من الاهداف . فان روح العمل ، أى عمل ، انما تتمثل فى الرغبة الصادقة فى النهوض به . وبدون هذه الرغبة لا يحدو العمل ان يكون أمنية من الامانى ، او حديثا يجتره اللسان . . . فكيف السبيل الى اذن . . . فمن لك بايجاد الرغبة فى استعمال علاج هذه المشكلة ؟ . . . وكيف السبيل الى فرسها فى النفوس ؟ . . .

(١) صاحب هذا الاقتراح هو الدكتور احمد ابو زيد . انظر العدد الرابع من مجلة (عالم الفكر) الكويتية . المجلد الثانى عشر .

ان صح ما يقوله العلماء من ان الرغبة في شتى ما نتيجة طبيعية للرغبة من شئ آخر، فان الرغبة في استعمال هذا العلاج انما تنمو في نفوس من ارهبهم ذكر الموت والبلوى، وقلقهم بها الاحداث التي ستتوالى من بعد ذلك، بكل يقين، طال الزمن اليها أم قصر .
فمن ذا الذي أيقن واقع عبوديته لله عز وجل، ثم تصور منهاج الرحلة الانسانية في هذه الحياة الى الله عز وجل، ثم تصور قدوم ذلك اليوم الذي يصدر فيه الناس اشتاتا ليروا اعمالهم ان تأكل الندامة قلب كل منهم، ويتهلف قائلا : (يا ليتني قدمت لحياتي ..) . (رب ارحموني لعلى اعمل صالحا فيما تركت ..) أقول : فمن ذا الذي وعى هذا كله بحقله ويقينه، ثم يخسره بعد ذلك بريق هذا السراب، وتأسره خادعات الليالي والايام، فضلا عن ان لا تثور لديه الرغبة الكافية في ان يستعمل اى علاج لتحرير النفس من فوائل هذا السراب، ثم لا يخضع لها لسلطان الله وأمره ؟

اذن فاليقين الجانم باليوم الآخر، والاصفاء بصدق وصفاء نفس الى النداء الموجه من رب العالمين الى الانسان : " يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه " - : هو المفتاح الاول للدخول الى حل هذه المشكلة، ومد رواق الاسلام وسلطانة الى الكيان الانساني كله .

فان لم يستيقظ هذا اليقين في طوايا الفكر والعقل، لم تتحقق الرغبة التي لا يمكن ان - تنبثق الرغبة في حل المشكلة الا منها . ومن ثم فان معالجة هذا الموضوع مهما نال اهتماما واتخذ أبعادا، لا يعدو ان يكون حديثا يضاف الى سلسلة الاحاديث التي تملأ بها الاذان، او كتابا يضاف الى اوقار المجلدات التي لم تستطع ان تغير واقعا ولا ان توقظ سادرا او ترد شاردا . . .

ولا حيلة، في هذا المقام، لا يجار هذه الرغبة فعلا في نفوس اولئك الذين لا يبتغون من الاسلام لانفسهم اكثر من زاد ثقافي يتمتعون به، ولا يريدون من انفسهم للاسلام اكثر من انتماء فخري، او تراشي، اليه، سوى ان اتوجه الى كل منهم بهذه الكلمات :
تذكر يا أخى المسلم هويتك في هذه الحياة، ثم الوظيفة التي وكلت اليك للقيام بها -
أما الهوية فتقول : انك عبد مملوك لله عز وجل، بيده جميع تقلباتك، واليه وحده مضيرك . . .
هوية دفع عليها قول الله عز وجل " . . . ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين " .
واما الوظيفة التي خلفت من اجلها، فهي ان تمارس عبوديتك لله بالسلوك الاختياري، كما قد جبلت عليها بالواقع الاضطراري، وعبوديتك الاضطرارية هذه حقيقة ثابتة لا مرد لها، ولا معنى لتجاهلها او انكارها . ان لم يقرب ذلك عقلك استكبارا، أيقن واعترف به واقع كل ذرة من كيانك ضعفا وهوانا . . . ولا ريب انك تملك اليوم - بما منحك الله من حرية الاختيار - ان تعرض عن هذا الحق وتتناساه، ما طاب لك ذلك، ولكلك لن تملك غدا، عندما تتعذر على فراش الموت، ويكشف الحجاب عن بصرك الثاقب الحديد آنذاك، لترى الحقائق كلها بأعينيك، سوى ان تخمس كيانك كله في ذل العبودية والصغار لمولاك عز وجل . فإني أعجز في تلك الساعة عن ان تضع عبوديتك هذه موضع التنفيذ . وصدق الله القائل " يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون " .

وانما تملك حينئذ شيئا واحدا فقط، هو الندامة والاسى، في ساعة رهيبة ولي منها معنى الزمن الذي كنت تملك ان تتحرك فيه وان تجعل منه وعاء للسلوك الذي تريد .
نصور بعد هذا فنقول : اذا تحققت الرغبة لدى المسلم في أن يمتد سلطان الاسلام على كيانك كله، واتجهت منه العزيمة الى ذلك، انتقل بذلك من ساحة النفاق مع الله ومسمع الناس، في افكاره وتصرفاته، واستقر على قاعدة ايمانية صلبة، ذات اهمية كبرى في توجيه المسلم الى مراقبة التربية النفسية والسمو الخلقى، الا وهى قاعدة الصدق . . . الصدق مع الله والصدق مع الناس .

ويتهيأ المسلم ، اذا استقر فوق هذه القاعدة ، لقبول المعالجة ، بل للسير وراءها والبحث عنها . وسرمان ما يتجه بكل قواه الفكرية ومشاعره الوجدانية الى طريق التزكية . ويبدأ الدخول في منهاج قد يكون شاقا وطويلا الى ذلك ، ولكنه يمارسه ويؤدي وظائفه في طواعية ورغبة .

ذلك لان وجود الرغبة التي تعد شاعنها ، من شأنه ان ييسر له كل شيء . والسير الموصل الى تزكية النفس هو المعنى بالجهاد في قول الله عز وجل (وجاهدوا في الله حق جهاده)

(الحج : ٢٨)

وفي قوله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (العنكبوت : ٦٩) وهو المراد بكلمة التزكية المتكررة في كتاب الله عز وجل ، من مثل قوله تعالى (. . هل لك الى ان تزكى واهدك الى ربك فتخشى) (والنازعات : ١٨)

وقوله سبحانه (قد افلح من زكاهما وقد خاب من رساها) (والشمس : ٩)

وانما ينمو اسلام المسلم باستمرار وصول غذائه اليه ، وما غذاؤه في كل الاحوال الا السير في طريق هذه التزكية التي هي الروح أو المصيب الممتد في كيان الاسلام .

ويحس الان ان نتساءل : ما التزكية ؟ . ثم ما هو المنهاج العملي لبلوغها ؟

لكن نجيب عن الشطر الاول من السؤال ، يجب ان نتذكر ما قلناه ، من ان الانسان ثلاثي التركيب ، فهو مركب من هذا الهيكل الجسدي ، ومن الفرائز الحيوانية السارية فيه ، ومن الروح التي هي سر لا نعلم حقيقته . . هذا السر الذي يشرق على الدماغ فيكون وعيها وتفكيرها ، وينعكس على القلب فيكون وجدانا ، وينتشر في كل اجزاء الجسد وغلاياه فيكون شعورا وعياة نابضة .

فهذه الروح التي قضى الله ان تقع في هذا السجن الجسدي الترابي ، استوحشت ، واستبد بها الحنين الى العالم الفسيح الذي هبطت منه ، وظلت تشعر بالاسى والاغتراب ، من جراء التعجب الكثيفة التي اسدلت بينها وبين عالمها العلوي الذي كان موطنها لها . وهذا الحنين الخفي لا ينفك عن الروح في وقت من الاوقات أو مكان من الامكنة ، أيا كان الجسد الذي تقبع فيه .

فيران الذي يمنع سواد الناس وعامتهم ، من ان يسمحوا حنينها هذا ، أو ان يتبينوا شيئا من مرماه ومدلوله ، انما هو خجيج الفرائز الهاججة في النفس ، واثرة الشهوات التي يتضمن سعيها على سطح الشعور الانساني ، ولا سيما اكثر الناس يمدون غرائزهم هذه كل يوم بمزيد من الصغريات والمهيجات . فمهما تعالى صوت الروح اشجانا وعيننا واشواقا ، من اعماق الكيان الانساني ، فانها لا تنتشر بين خجيج تلك الفرائز والشهوات النفسية ولا تتعالى الى فكر احد هم ، الا مبهمه غامضة غير مفهومة ولا مترجمة .

بل كثيرا ما تصاد النزوات النفسية والفرائز الشهوانية ، تلك الاشجان واللواعج الصلوية ، الصاعدة من اعماق الروح ، فلا تدعها حتى تترجمها الى لغتها ، وتجعلها تعبيراً

عن مطالباتها ، وكثيرا ما يخدع الفكر بذلك مع ان الحقيقة على خلافه . ولست استقي هذا التحليل من خيال شعري ، ولا اختراع اسطوري . بل انه المعنى العلمي ، وليس الثابت الذي يحيش في كيان الانسان . ذكره العلماء اعتمادا على رايهم العلمية ، وذكروا الفلاسفة من منظور منطقهم الفلسفي ، واكدوا اصحاب المواجهيد الايمانية بمقاييسهم وذكروا الفلاسفة من منظور هذه الالة أو شيء منها . ولعلنا جميعا نذكر في الوجدانية . ولا يتسع هذا البحث لموضوع هذه الحقيقة من خلال وعيه الي ينسى ، هذا المصدر قصيدة ابي علي بن سينا ، وهو يؤكد هذه الحقيقة من خلال وعيه الي ينسى ، ودرأيته الفلسفية ، واختصاصه الحلمي والطبي ، ان يقول :

ورقاء ذات تعزز وتمنع

وهي التي سمرت ولم تتبرقع

هبطت اليك من المحل الأرفع

معجوبة عن كل مقله عارف

ألى ان قال :

تهكى وقد ذكرت عهدا بالمعنى
حتى اذا كان المسير الى المعنى
اخذت تنرد فوق ذروة شامس
قد كان اهبطها الاله للمعنى

بمدامع تهوى ولما تقلع
ودنا الرميل الى الفضاء الاوسع
والعلم يرفع كل من لم يرفع
خفيت عن الذهن الذكى الالمعنى

هذه الحقيقة الخفية عن كثير من الناس ، هي التي تبرز ضرورة التزكية ، وتنبيه الى مدى اهميتها
فى حياة الانسان . ذلك لانها السبيل الوحيد الى تخفيف ضجيج الشهوات والاهواء ،
الروح ، والى فتح النوافذ والكوى الممكنة بينها وبين عالمها العلوى الذى تظل فى حنين دائم ،
وهى السبيل الى تعهد الروح بغذائها الذى تحتاج اليه وتنمو وتنتعش به .

ومن الثابت يقينا ان الروح ان تلقت غذاءها الذى تحتاج اليه ، والذى سنتحدث عنه
بعد قليل ، انتعشت وشعرت بالتحرك حتى وهى فى سجنها الضيق من هذا الجسد ، واشرق
على النفس كلها بضياء علوى يغمرها حنينا الى الله وحباً له ومهابة منه . وهيمنت بمشاعرها
واشواقها على مكن الفرائز فى النفس ، بعد ان كان هو المهيمن على الروح والمحيط بها من
سائر الجهات . وفى هذه المرحلة تتحول النفس من أماراة بالسواء الى لوامة عليه ، ثم ترقى
فتصبح مطمئنة راضية . وعندئذ تنطق المشاعر كلها بلسان ذاك الذى سلك سبيل هذه التزكية ،
حتى وصل اليها وقطف ثمارها ، فأنشد يقول فى نشوة بالغة وسعادة فامرة :

كانت لنفسي اهواء مفرقة
فصار يسعدنى من كنت احسده
تركت للناس دنياهم وشأنهم
ولسنا نعننى بهذا الذى نقول ان الفرائز الحيوانية تجف وتنضب فى هذه المرحلة ، ليتحول
صاحبها الى كيان ملكى وروحانى مجرد ، فان هذا لا يكون ، وما ينبغى ان يكون . ذلك لان هذا
الدين انما فصل فى عقائده واحكامه وآدابه ، على قدر الكيان الانسانى باجزائه الثلاثة الجسمية
والروحية والفرىزية . وقد قضى الله ببإلغ حكمته ان تكون رعاية كل من هذه الاجزاء ، على الوجه
السليم ، نوعا من الوقاية لكل من الجزئين الاخرين ، كما ان اهمال واحد منها يحود بالضرر
والنقص على الاخرين .

ويعجبني فى تقرير هذا المعنى ما يقوله شاعر باكستان محمداقبال ، فى خطبة القاها فى
الحفل السنوى للرابطة الاسلامية فى مدينة (الله آباد) عام ١٩٣٠ . يقول :
" ان الاسلام يقرر ان الاسلام وحدة كاملة ، دون فصل فى الاحكام والمصائر بين المادة والروح .
فالقربات التعبدية ، والمصالح الدينية ، ومساجد العبادة ، ومناصب الرئاسة ، وميادى
الحمل ، فى المادة والروح ، انما هى اجزاء متعددة لكل واحد . فان هذا الانسان لم يسكن
عالمها يتحتم عليه ان يتخلص منه بالتماس الهجرة الى عالم روحى تقى . فالمادة التى ترقى
بها تعاليم الاسلام وتنظمها ، ليست سوى شكل من اشكال الروح ، ومظهر آخر فى حدود
الزمان والمكان "

* * *

المنهج السلوكى الى التزكية :

ذلكم هو معنى التزكية ، وهو يعبر فى الوقت ذاته عن مطمح النظر فى القيام بوظائفها .
وتلك هى الاجابة عن الشطر الاول من السؤال الذى طرحناه .
وعلى ان ان نجيب عن الشطر الثانى منه : كيف تتحقق هذه التزكية ، وما المنهج
السلوكى اليها ؟
وانا شئنا ان نستفيض هنا عن كلمة (التزكية) هذه بتصوير اكثر وضوحا واقرب تصويرا للمشكلة
وعملها فلنقل : كيف يكون السبيل العملى الى الاصطباغ الكلى بحقيقة العبودية لله عز وجل ،
بحيث لا يستعبد المسلم مال ولا جاه ، ولا عصبية شخصية ، ولا شئ من آفات النفس من أنانيّة
وكبر وعجب وأثرة ونحوها .

لا رهبان سلوك السبيل الذى نلك ليس بالامر اليسير . وكيف يكون يسيرا وهو القاسدة الجهادية العريضة التى كلف الله عباده جميعا بالانطلاق منها . . . وكيف يكون يسيرا وهو العاجز الذى يميز الدين الصادق فى ايمانه عن المنافق الذى يتحمل بمظاهر التدين والايان امام الناس ، بل هو العنصر الذى يفوق المسلم من الدخول تحت قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى وابن ماجه : " تعمس عبد الدرهم ، تعمس عبد الدينار ، تعمس عبد القطيفة ، تعمس وانتكس ، واذا شريك فلا انتكس ان اعدى رضى ، وان لم يعط سخط " وهو الممارس الذى يعمس ايمان المرء من الذئبين الجائعين اللذين حدّر رسول الله منهما نفسى قوله " ما ذئبان جائعان ارسلا فى فم ، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه " رواه احمد والترمذى وابو داود .

ومن اجل اعمية هذا الجهاد ، وكونه الطريق الوحيد الى تزكية النفس وبلوغ مرضاة الله عز وجل بذل سلفنا الصالح رضى الله عنهم كل طاقاتهم سميا فى هذا الطريق ، وسلوكوا السبيل مجاهدة النفس وردّ غوائلها واجتثاث رجواتها مسالك كثيرة متنوعة ، كلها يدخل فى فنون التربية ابتغاء تصعيد الوجدان .

ونحن نستعرض من ذلك كله ما اجمع عليه السلف وتمت عليه دلالة الكتاب والسنة ، ونذكر انفسنا بأنه جوهر الاسلام ولله ، وانه السلم الوحيد الى التحقق بالمنهج الالهى الذى السبيل الله عز وجل به عباده ، وانه المفتاح الذى لا بد منه لتذليل كل صعب وجمع كل شمل وتحقيق كل نصر .

ومع ذلك ، فاننا لن نرسم خطى هذا الجهاد ، كما قد يتوقع الكثير ، من خلال عرض فلسفة عميقة ذات ديباجة واطار ، ولا من خلال اعتماد منهج حركى تضبطه التنظيمات الشكلية ، وتتحرك فى داخله الا لسنة المناقشة والاعضاء المهتاجة ، بل سنتبصره خلال ما هو ابسط فهمها وأيسر منالا . . . سنتبصره من خلال اوضح الايات التى نقرأها صباح مساء فى كتاب الله عز وجل . غير ان كثيرا منا عن تريق هذه الايات ساهون معرضون . . . وهو يتلخص فى اتباع ما يلى :

أولا : تفكر الانسان فى ذاته ومصيره ، وفى مراقبة الله عز وجل له ، وايقاظ العقل لذك عند كل غفلة ونسيان .

والفكر حركة العقل . فمن دونه لا يفنى العقل شيئا .

والفكر هو الذى يحرر العقل من سلطان النفس وغوائلها . فمن دونه لا يستبين الانسان الفارق بين دوافعه العقلية ورجواته النفسية .

ومن اجل هذا يغتم الله كثيرا من آياته الكونية وأوامره التكليفية بمثل قوله : " أفلا تتفكرون .. لعلمكم تتفكرون .. " .

غير ان دوام الفكر يحتاج الى موضوع يشتغل به الذهن ويطوف حوله العقل . والموضوعات التى تصلح لذلك كثيرة ومتنوعة . ولكن اهمها واقربها اتصالا بالوجدان الانسانى ، موضوع

النعم والالاء الكثيرة الظاهرة والباطنة التى يتقلب كل منا فيها لحظة ف لحظة .

واذا تأملنا ، لاحظنا ان الوجود الانسانى كله مكون من هذه النعم ، فمنها يتألف سدى

ولحمة عيشه . . ثم ان الانسان منفعل بهذه النعم والالاء كلها ، وليس فاعلا لشيء منها :

فمظاهر العافية فى كيانه . . واشراق الفكر والوعى على كيانه . . ونهوض الاعضاء ، من سمع وبصر

ونطق ويد ورجل ، بوظائفها . . واداء الباطن من هذه الاعضاء للواجبات المطلوبة منها . .

وتلاقى السماء والارض ، فى تناسق تعاونى دائب على تحضير رزقه وطعامه اللائقين . . وانسجام

الافلاك فى حركة رقيقة دائبة ابتغاء تنظيم حركاته وسكناته المعاشية فى حدود الزمان والمكان . .

وفير ذلك من مظاهر المنن الالهية العجيبة التى لا حيلة للانسان فى جلبها اليه ولا فى دفعها

عنه ولا فى السيطرة عليها بأى لون من ألوان التحكم او التسيير :- كل ذلك دليل ناطق بأن

الانسان ، فيما يتمتع به من طاقات ذاتية ، وما يعيط به من من كونية ، ليس اكثر من جهاز -

استقبال . ان انقطع عنه ارسال هذه النعم المتنوعة العجيبة ، عاد مخلوقا جامدا فارقا عن كل ما كان يشمخ ويتباهى به ، مثله كمثل الشاشة التى تلمع عليها مظاهر الصور والحركات والالوان .

حتى اذا انقطع عنها الارسال عادت جرما هامدا لا حركة فيه ولا حياة .

وليس بين الانسان وبين ان يفيض قلبه حبا ، الى درجة الصباية والعشق ، لخالقه الذي -
أمدّه بكل هذه النعم ، ثم متعه باستمراريتها ، ووقاه من كل ما قد يترتب بها ، سوى ان يوجه فكره
الى هذه الحقيقة : بمثل امامها ، ويتبين مظاهرها ، ويستشف مدى حب الله لعبده من خلالها .
ومهما يكن فان التفكير ، كلما كان في نجوة عن الناس وضوضائهم وملهيات الدنيا وشواغلها ،
فان ثماره تكون أتم واسرع ، لا سباب علمية ونفسية لا يتسع المقام للخوض فيها .
وانما يتم ذلك بتنظيم ساعات من الخلوة يجعل المسلم لعمره نصيبا منها ، يقبل فيها الى
عقله المتجرد العسر ، مستعينا بذكرى كالم الله وبالف عذاته ، ثم التأمل في نفسه من خلال المثل
الذي عرضناه ونبهنا اليه .

ولست ادعو بهذا ، الى الانحزال عن المجتمع ، والعيش بعيدا عنه ، في كهوف جبال أو
بدون اودية . فليست هذه فطرة الانسان ولا هي وذليفة المسلم . ولكن ادعو المسلم الى التأسي
برسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذا كان يأخذ نفسه بساعات من الخلوة والبعد عن الناس . .
أدعوه الى ان يخلو الى عقله كلما اراد ان يرجع الى حساب صندوقه ، اى كما يصنع التجار ان
ينخرط كل يوم في صخب الناس وضجيج الاسواق . ولكن ذلك لا يمنعه ان يخلو الى نفسه في
زاوية من داره ، بعيدا عن اصدقائه واهله واولاده ، ليستغرق في النظر الى دقاته وأوراقه
وعساباته . ان من الواضح جدا انه لولا اهتمامه بهذه الساعات من العزلة في عمره التجارى ،
لما قدم له متجره الذي يخلص بالفادين والرائحين الى الندامة والخسران .

ان مثل هذه الساعات ، هي التى تحرر الفكر مما قد يتسلل اليه ، من وحى الحسبيية
أو دوافع الاغراض الشخصية ، او جموحات الاهواء النفسية ، ثم ترقى بالمسلم شيئا فشيئا الى
مستوى الصفاء القلبي ، ان ينخرط في عداد من امتدحهم الله عز وجل بسلامة القلب ، وذلك
في قوله عز وجل : " يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم " (الشعراء : ٨٩) وهم
الذين صدق عليهم قوله عز وجل " . . يحبهم ويحبونه " .

* * *

ثانيا : التزام ورد منتظم دائم ، من تلاوة كتاب الله عز وجل ، وما يتبعه من التسبيح والتهليل
والاستغفار ، مما يدخل في عموم معنى الذكر .

اما تلاوة كتاب الله عز وجل ، فما اظن اننا بحاجة الى سرد ماورد من الاحاديث -
الصحيحة في فضل تلاوته وتدبره . ولم يقع خلاف بين المسلمين في ان التقرب الى الله تعالى
بتلاوة كتابه ، يعد من افضل القربات التى تترك اثرها البارز في تزكية النفس وتخليصها من
الرعونات والافات .

وقد كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذون انفسهم بأورا من معينة من تلاوة
القرآن في كل يوم وليلة . وربما يشغل احدهم عذر ضرورى عن ورده ذات يوم ، فقصاه في اليوم
الثاني في حسرة وألم .
كما قد وقع لعمر رضى الله عنه اكثر من مرة .

وأما الذكر والتسبيح والاستغفار ، ونعمو ذلك ، فهو العلاج الذى وصفه الله تعالى -
لرسوله ، واكدّه وكرر الامر به في كثير من آى كتابه المبين .

فقد قال : " وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناه الليل فسبح
واطراف النهار لعلى ترضى " (طه : ١٣٠) .

وقال : " وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار " (آل عمران ٤٣)
وقال : " واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالمخسو والاصال ولا تكن
من الغافلين " (الاعراف : ٢٠٥)

وقال : " واذكر اسم ربك بمكة واصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا " (الدهر : ٢٥)
ولا اعلم خلافا بين اهل العلم ، في انه لا بد للمسلم ان يتخذ لنفسه وظيفة دائمة من
ذكر الله عز وجل ، وان افضل الاوقات لذلك هو البكور والاصال ، كما نص على ذلك كتاب الله
عز وجل .

فاذا عرض له عارض شغله من اداء ورده في وقته المعتاد ، كان الافضل ان يتداركه
فيما بعد ، في اى وقت من ليل او نهار ، حتى لا يكون انشغاله عنه ذريعة الى تضييعه .
وقد ثبت في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : (من نام عن حظه او شئ منه ، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، كتب
له كأنما قرأه من الليل)

ولا التفت الى من يزعم بأن الذكر عبادة مطلقة ، وان تعيين وقت خاص للعبادة المطلقة
بدعة محرمة . . .

ان اشارة فرقا كبيرا بين العبادة المقيدة بالاطلاق عن الوقت المحدد ، والعبادة
المطلقة عن قيد الوقت المحدد . وانما ذكر الله تعالى من القسم الثانى لا الاول . ويحرف
الفرق بين هذين القسمين اولو التحقيق من اهل العلم .

وقال زعم هذا الذى يقول هذا الكلام ، ان يقصص صاحبه عن ذكر الله تعالى من أيسر
سبيل . . . ذلك لان من يشرح هذا الوهم في حسابه ، لا يكاد يتجه الى هذه العبادة العظامى
في اى وقت من اوقات حياته ، اتقاء الوقوع في البدعة فيما يزعم .

وربما ابصرته في هذه الاوقات الفاغلة ، فرأيته يخط في نوم عميق او تبلبس بلبس او غيبة
محرومة ، دون ان يتنبه الى خطورتها هو فيه من اثم وضلال حدّ رمنها كتاب الله تعالى بصريين
البيان وربما كان شفيحه في ذلك انه لا يريد ان يشغل الوقت ببذعه الذكر في وقت معين .

نعم ، على الذاكر الذى اختار لنفسه وقتا لم يخصصه له دليل من القرآن أو السنة ، أن
يكون على هيئة من ان اختيار هذا الوقت للذكر انما هو برغبة شخصية منه نظرا الى انه الوقت
المناسب له مثلا ، وان لا يفتقد ان هذا الاختيار يستند الى دليل دينى معين ، فتلك هى
البدعة عندئذ .

ولا ريب اننا لانقصد بالاذكر مجرد حركة اللسان في الفم ، ولا فرقة السبحة في اليد ،
كما لانقصد القفز على اصوات المنشدين وانغامهم . وانما نعنى به ما عناه الله تعالى به فى
محكم كتابه عندما أمر بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم ، ان قال له : " واذكر ربك فى نفسك تضرعا
وخيفة ودون الجهر من القول بالخضو والاصال ولا تكن من الغافلين " الا وهو ذكر القلب ،
وحركة الفكر ، وتيقظ الوجدان . وان كانت حركة اللسان مطلوبة فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم
(لا يزل لسانك رطبا بذكر الله) فانما هى لفائدة تنبيه القلب وتحريك الوجدان ، وحجج
اللسان عن الاحاديث العلمية التى قد تلهى القلب وتشغل النفس .

اما اثر ذكر الله عز وجل ، فى تحرير النفس من المشكلات النفسية التى نحن بصدد الحديث
عنها ، فحدث عن ذلك ولا حرج . . انه العلاج الاعظم ، بل الاوحد ، لتزكية النفس ، وكسر
كل ما قد يرسب فيها من امراض الانانية والحقد والحسد والتعلق بالدنيا ، بكل معانيها
وانواعها .

وبيان ذلك انه يتكون فى القلب من الاستمرار على ذكر الله عز وجل ، شعور تبثه السروح
بالرقابة الالهية على كل ما يتلبس به الانسان من التصرفات والاقوال والنيات . فما يكاد يهيم
بفعل شئ او يحزم على النطق بكلمة او يضرر قصدا معينا ، الا ويدفعه ذلك الشعور القدسي
الى تقويم عمله ، وتحديد نطقه وتصحيح نيته . . .

وتلك هي الدراسة الالهية العظمى في حياة المسلم ، وذلك هو الاحسان الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأن يحسد المسلم ربه كأنه يراه ، فان لم يكن يراه فعلا ، فهو موقن بأن الله عز وجل يراه .

ثالثا : (وهذا علاج سلبى) تجنب اكل المحرام . فان الجسم الذى روى على المال المحرام ، تكمن فيه - على الغالب - نفس نزاعة الى الانحراف والانفلات من حدود الله عز وجل . وان انت بات ضمن حدوده فى الظاهر ، تجسعت منها الادواء والافات الخطيرة فى الباطن . والمال المحرام يبدأ من سلب اموال الآخرين بدون رضا ، او بدون وجه شرعى ، ثم يتنوع الى انواع واشكال مختلفة ، حتى ينتهى عند الشبهات المختلفة التى هى مظنة المحرام . ومن لم يستطع ان يتخلص من الشبهات ، استطاع ، ان أراد ، ان يتخلص من المحرمات . ومن وجد معذرة يتذرع بها بالنسبة للوقوع فى الاولى ، لم يجد اى عذر يتمسك به بصدرا قتلهم الاخرى .

وللتغذى بالمال المحرام نتائج خطيرة جدا فى حياة المسلم ، أهونها ما يحانيه القلب من قسوة عجيبة ، لا تحركه معها موعظة واعظ ، ولا تذكرة مذكر ، ولا ينفعه معها تحذير ولا ترغيب ولا تهيب .

ان يقع الانفصال بذلك بين العقل والقلب ، فيدرك العقل دون ان يتأثر القلب ، ويخضع الاول دون ان يلين الثانى . وهى بات ان يملك العقل وحده قيادة السلوك فى حياة الانسان ، كما قد اوضحنا ذلك .

ومن شأن التهاون فى الاخذ بهذا العلاج ، ان يجعل اسلام المسلم شعارا يصلح به ظاهره فقط .

أما الباطن الخفى فيظل سوقا فى سبل اخرى تحفظها دوافع الشهوات والاهواء . بل اذا - استمر المسلم فى اقباله على المال الذى تطوله يده كيفما اتفق ، لم يجد يفيد شئ مما المحدث اليه من قبل ، فلا تلاوة القرآن أو سماعه تنبيهه من غفلة ، ولا الاذكار والاوراد تصلح شيئا من حاله أو ترقق من قلبه .

وقد روى مسلم والترمذى وغيرهما من حديث ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (يا أيها الناس ان الله طيب لا يقبل الا طيبا ، وان الله أمر المرسلين بما أمر به المسلمين . فقال ز يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم) وقال " يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) قال : ثم ذكر الرجل يطيب السفر أشعث أغبر يمد يده الى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له ؟ " .

وما أكثر المسلمين الذين اذا عددناهم بمقياس الصلاة والعبادات الظاهرة واستعمال المسابح فى الايدى وتعويد اللسان على المواعظ والكلمات الدينية المنمقة ، وما أقلهم اليوم ، ان احدهم بمقياس التعفف عن المحرام والتزام حدود الله فى المأكل والمشرب . وكم رأينا مسلمين يعددون فى خيارهم ، يصفون الكلام حلوا عذبا فى الدعوة الى الاسلام وهديه ، حتى اذا لاحت لاهد هم سبيل تجارة رابحة تستوجب بعض الانحراف أو كلة عن ميزان الاسلام وحكمه ، أسرع يقتحم السبيل غير هيب ولا وجل ، فاذا ما نبهه أخ مسلم ، تأول ما لا يحتمل التأويل ، وصاغ فقها جديدا لا أساس له ولا دليل عليه .

* * *

رابعا وأخيرا : كثرة الدعاة ، وشدة التضرع والابتهاال الى الله عز وجل .

وهذا العلاج ، بعد ذاته عبارة ذات أهمية قصوى . بل هو مخ العبادة وليها . بل هو العبودية التى تعد أرقى مراتب القرب الى الله عز وجل .

وكلنا يعلم ان الله أمر عباده بالدعاء ، وأكد ذلك ، وكرد الامر به في محكم كتابه ، وجعله من سمات عباده المخلصين . فقال جل جلاله : " أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَرْضَى الْمُصْتَدِينَ " (الاعراف : ٥٥) وقال : " فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ " (غافر : ١٤) وقال " وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا " (الاعراف : ٥٦) روي عن المخلص من عباده بقوله " انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا فاشعين " (الانبياء : ٩٠)

وانما يستشعر الانسان أهمية الدعاء وضرورة التضرع الى الله ، عندما يشعر بحاجته الى الماسة الى الله تعالى ويستيقن ان لامعين غيره وان لا رجاء الا منه . فعندئذ يدعوه بقلوب صسبادق وشعور مستيقظ خاشع .

وانما السبيل الى استمرار هذا الشعور ، الاخذ بالعلاجات الثلاثة التي سبق ذكرها . على ان من المعلوم لكل مسلم صادق في اسلامه ان الذي يعين الانسان على السير في طريق الاستقامة انما هو توفيق الله عز وجل . فلو تخلى هذا التوفيق عن الشاب المستقيم ، لا نقذف منذ تلك اللحظة في اقصى اودية الانحراف .

وانما يتم توفيق الله تعالى للمسلم بأمرين اثنين : صدق الارادة المتجهة الى الخير ، واخلاص الدعاء المتجه الى الله عز وجل بالضراعة والذل .

وقد استوقفني شاب ذات يوم في رحاب الجامعة ، وشكا الى في التباع ان نفسه تنازعته الوقوع في الشر ، ولا يكاد يقوى على امتلاك زمامها والتغلب عليها ، وان حياة الجامعة تزيد من خراوة نفسه ، وناشد في الشاب ان أهديه الى سبيل يتخلص بها من عذاب نفسه .

فقلت له : رأييت الى هذا الالتباس الذي تعرض به شكواك على ، اعرض هذه الشكوى بنفسك بمزيد من الالتباس على ربك جل جلاله ، وناجيه وتضرع اليه في ساعة ليس فيها بينك وبينه أسد ، واسأله ان يمنحك التوفيق والقوة ، فانك ان فعلت ذلك مرارا وثبت عليه استجاب الله دعائك ، يحقق لك التخلص من عذاب نفسك بأيسر سبيل . وقد كان ذلك بحمد الله وتوفيقه .

ان انتهاء الانسان الى حالة نجده مضطرا لمد يده الى من يعينه في تخليصه من رهق أو بلاء يعانيه ، ثم لا يجد من يعينه في ذلك الا الله جل جلاله - هو جوهر العبودية القسرية التي فطر الله الانسان عليها . وان وقوفه فعلا في خراوة وذل على عتبه جل جلاله يدعوه ويسأله ويرجوه ، هو جوهر العبودية الكسبية التي أمر الله الانسان أن يمارسها .

ومعنى هذا الكلام الذي نقوله ، ان على المسلم ان يلتزم أولا علاج الآفات النفسية التي يعاني منها بالتباع السبل الثلاثة التي مضى ذكرها ، ثم يعالجه - الى جانب ذلك - بالدعاء المستمر يتوجه به الى الله تعالى في خراوة وذل وبقلب منكسر ، مستشعرا انه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وانما امره ووجوده كله بيد الله عز وجل . وليقدم وسيلة وشفيعا الى الله تعالى بين يدي ذلك ، صدق الارادة وسلامة النية وذل النفس بين يدي ربوبية الله وسلطانه . (١)

وما أكثر من يهونون من أمر الدعاء ، محتجين بأن ما يطلبه العبد ان كان مسطورا في قضاء الله لم ينفعه الدعاء في طلب الوقاية منه ، وان لم يكن مسطورا لم يحتاج الى الدعاء من أصلا . ولا نريد ان نجيب عن هذا الاحتجاج بما قرره العلماء في هذا الصدر ، فان بحثنا هذا يتسم بطابع آخر . . ولكننا نوجز ونقول :

ان الله عز وجل أمر عباده بالدعاء ووعدهم بالاستجابة ، ووعد الله صدق ولا يلحقه خلفاء . وهذا ما يهم المسلم معرفته ، فما لنا وللبحث فيما ليس من شأننا ولا اختصاصنا ، وفيما يورق الانسان فكره في امر عائد الى تدبير الله وعظيم قدرته وسلطانه ؟ . . قضاء الله حكم من احكامه : واستجابته الدعاء وعد قطعه على نفسه . وانما وظايفتنا ان نخضع لحكمه ونؤمن بوعدده ، ثم نكل تدبير الامر اليه .

ثانيا : أثر هذه العلاجات فى حل المشكلات الفرعية :

إذا ثبت ان استعمال هذه العلاجات الاربعة التى تكلمنا عنها هنا بمنتهى الايجاز ، يصنع العاطفة الانسانية بالاسلام ، رغبة ورغبة واجالا وتَعْظيما لله عزوجل ، ويجعل الكيان الانسانى كله خاضعا لدين الله عزوجل ، وانه يبعث فى الروح التى هى مصدر الفطرة الاسلامية التى فطر الله الناس عليها ، انتماعا عظيما ، سدى تبلغ من الاشراق والقوة الى بحيث تكون قبلة الشعور والسلوك الانسانى اليها - : اقول اذا صبح وتبين لنا كل ذلك ، فلا بد ان يتبين لنا بطبيعة الحال ، ان سائر ما المحدثا اليه من المشكلات النفسية المتفرعة عن مصيبة ازدواج الكيان الانسانى ، من عصبية واضطراب نفسى ، وانجذاب الى تلك المضارة الغربية ، وغيرها ، لا بد ان يذوب ويضمحل فى خضوع الشعور الوجدانى الذى سيزداد هيمنة على الكيان الانسانى كله ، كلما ازداد دواما على استعمال العلاجات التى نبهنا اليها واوضحنا مدى ضرورتها . لن نقودنا العصبية آنذاك ، فى طريق دراساتنا وبحوثنا العلمية ، ولا على صحيفتنا التى تحرك فى نطاق الدعوة الاسلامية ، ولن نجعل من ذلك غذاء لتنمية شخصيتنا العلمية وآرائنا المذهبية على حساب مصلحة الدين ورضا رب العالمين ، لان فى الدوام على استعمال تلك الادوية ما يفجر نوازع الاغلاص الدين الله فى القلب . وهيئات ان يتجاوز الاغلاص لله مع العصبية النفس فى قلب واحد .

ولن تجد فيمن قد اخذ نفسه باستعمال هذا الدواء من قد جذبه بوارق الحضارة الغربية اليها ، فزال يطوف حولها ويلطمح اليها ويدافع عنها فى طواعية وذل . لان عصبية وتعظيمه لله عزوجل لا يدعان فى قلبه متسعا لخب شئ آخر غير دين الله عزوجل ، فزال عما قد يناقضه ويتربص به ، ولان تنامي شعوره بمعنى يعوديته لله عزوجل يشرح به الى درجة من النشوة والاعتزاز ، لا يرى معها وجهها للتباهى أو الاعتزاز بشئ غير دين الله عزوجل . وكيف ينصاع فى انكسار الى اللعاق بمظاهر الحضارة الغربية والافتتان بها ، من قد فاض قلبه شعورا بمعنى هذه الكلمات :

وكدت بأخضنى الما الثريا

وان صيرت احمد لى نبيا

ومما زاد فى شرفا وتيها

دخولى تحت قولك يا عبادى

ولن تجد فيمن اقام على استعمال هذا الدواء ، من يحانى من اضطراب نفسى ، أو قلق شعور ، مهما تجمعت اسباب ذلك من حوله على ما بينا . وكيف يجتمع دوام ذكر الله مع شئ من اضطراب النفس ، أو قلقها ، وقد قال الله عزوجل " الا بذكر الله تطمئن القلوب " ؟ صحيح ان من شأن ذكر الله ان يبعث فى قلب الذاكر القلق والخشية ، ولكن اقتحام القلب مضاعفة ذلك الوجيل هو الجسر الذى يجتازه الى هذه الطمأنينة . ان لولا وجل القلب من الله عزوجل ، لما انصرف عن شواغل الدنيا ، ولما اطمأن الى تدبير الله لكافة شؤونه ، ولما وجد السبيل الفعلى الى التوكل على حسن اختيار الله للعبد .

*

*

*

غير ان السبيل الى استعمال هذا العلاج الرباعى الذى اوضحناه ، لا يكون بمجرد عرض فى مثل هذا البحث ، ونشره فى مشهد كهذا العشد . وانما السبيل اليه اقامة معاهد التربية الاسلامية والدعوة الى الله تعالى على محور هذا العلاج ، عن طريق التبصير العلمى به أولا ، والتسليك الفعلى فيه ثانيا .

وكيف يكون التسليك الفعلى به ؟

ان ذلك لا يتم فوق منبر المناظرات ، ولا على صعيد الجدال والمناقشات . وانما يكون باتباع المنهج التربوى الذى سلكه الريانيون ، مع تلامذتهم ومريديهم ، بدءا من عصر الصحابة والتابعين الى العصور المتأخرة التى شاع فيها الزغل وتسلل الى الناس فيها كثير من البدع .

وانما يتطلب ذلك وجود مرشدين فاضلت افئدتهم اخلاصا لدين الله عز وجل ، واضطرب
كيمانهم الانساني بجملة العقائق الاسلامية ، يقينا علميا ، وتأثرا وجدانيا . وسلوكا عمليا .
وانما الشأن في هؤلاء ان يربوا تلامذتهم ومريديهم بتأثير من واقصهم السلوكي ، لا من خلال
اقوالهم ومعاشراتهم النظرية .

وهذا ما نفقده اليوم على الرغم من ان امنية هذه المعاهد والمؤسسات ، قائمة شامخة
في كثير من بلادنا العربية والاسلامية ، وعلى الرغم من ان فنون الحديث عن التربية ومناهج
الدعوة الاسلامية متنوعة ومتطورة . . . ذلك لان تيار الاهواء النفسية الجامحة ، لا يمكن ان
او تصد بأمنية باسقة تشار . . . ولا بمخاضات منمقة تلقى او تذاع ، كيف وان ذلك كله ، قد
يتحول الى هشيم بهيج مزبد من خرام تلك الاهواء ذاتها . وانما يتم ضد تيار تلك الاهواء ،
بتفجير ينابيع محبة الله وتعاليمه والمخافة منه ، من داخل تلك النفوس . ان لا يقارع الشعوب
الا بشعور مثله .

وأخيرا

أخطاء ينبغي التخلص منها

* من اهم هذه الاخطاء ، ما يلقاه هذا النوع من العلاج الذي اوضحناه ، في نفوس كثير
لا اقول من عامة الناس بل من العلماء والموجهين فيهم ، من الاهمال له والتهوين من شأنه ،
وعدم الاكتراس به . وربما عدوه من راب العامة وعاداتهم ، وتصوروا انه لا يليق بمن اتصف بحقوق
النظر العلي ، ولا بمن نشط للنهوض بالحركة والدعوة الاسلامية في الاوساط .

انه لو هم عجيب ، ومؤسف ، سببه ما قد يذهل عنه جل هؤلاء الناس ، من ان الاسلام
ليس مجرد مذهب فكري حركي ، يقوم بين شتى المذاهب الاخرى . وانما هو قائم في حقيقته على
معنى العبودية لله عز وجل . فهو المنطلق الاول لكل عمل وحركة وسعي ، وهو يستدعي ان يصلح
المسلم قلبه ونفسه قبل كل شيء . اما المذاهب الفكرية الاخرى فلا تكلف نفوس اصحابها شيئا
من ذلك . ولا تحملهم على اي تجنب عما سماه البله (باطن الاثم) ولذلك فان دعوتهم اليها
تبدأ من عمل حركي وتنتهي الى عمل حركي . . .
اما النفس البشرية ، فتسير على سجيته طبقا لما تريد .

* ومن هذه الاخطاء ، ان كثيرا منا يركز جل اهتماماته في نطاق الدعوة الى الله وتربية
النفوس ، على النقاط السلبية ، دون اى اهتمام بتخطيتها بما يقابلها من الامور الايجابية البديلة .
تجدد هم يحذرون من البدع الفكرية والسلوكية ، ويتعقبون الراء الشاذة ، والاجتهادات
الضعيفة أو الباطلة لتنفيذها والرد عليها . . . ويتتبعون الاخطاء أو الانحرافات التي ينزلق
اليها كثير من اهل العلم أو الارشاد ، دون ان يتبعوا ذلك بتقديم الوجه الايجابي في مقابل
ذلك كله .

ونحن لانشك في ضرورة التحذير من البدع ، والتحذير من ضلالات السلوك والاجتهادات
والا راء المنحرفة .

ولكننا لا بد ان نذكر بأن هذا كله ليس الا الجزء التمهيدى من عمل الدعوة والاصلاح ، واما
الجزء الاساسى المقصود منه فانما هو البناء الايجابى الذى يجب ان يلى ذلك . فان توقف
العالم أو المرشد عند نهاية الجزء الاول ، ظانا انه قد أبرأ ذمته بذلك ، فان عمله لا يختلف
عن بدأ فهدم الجدران المهترئة والمائلة من البناء ، ثم جلس بعد ذلك مطمئنا في الارض .
البراء .

لم تروا احدا ممن يظنون منهمكين في معارضة البدع وزغل العلم واخطاء السلوك ، أقبل
فتحدث مرة عن ضرورة التشجيع في الصلاة والاسباب التي تيسر ذلك ، أو تحدث مرة عن ضرورة
تربية محبة الله في القلب وعن الوسائل التي ينبغي ان تتبع لذلك ، أو تحدث عن ضرورة
الاتصاف بالاخلاص لله في العمل ، وضرورة الارتقاء الى صدق التوكل عليه والتفويض اليه والرضا
عنه ، كما لم نرد واحدا منهم اهتم بدعوة الناس الى الاكثار من ذكر الله ومراقبته والتفكير في
صفاته وعظيم الاثم . . . هذا مع ان ذلك العمل السلبى التهديمى ليس الا مقدمة لهذا البناء
الاصلاحى .

ودعوني أضرب لكم المثل التالي :

كثيرون هم الذين يبعثون في ظمأ شديد من أى سبيل تروى ينمو وجدانهم الدينى ، ويخسرون في فؤاد كل منهم حب الله وتعالى به والمخافة منه . ولا ريب انهم كثيرا ما يقومون اثباتاً بحديثهم هذا على سهل من معرفة لا تعلموه عن قليل أو كثير من الهدى . ولا ريب ان تحذيرهم من الوقوع في تلك السبل أمر ضرورى لا مندوحة عنه .

ولكن هؤلاء الاغوية الذين يحرصون اهتمامهم في التحذير مما لا يليق ، يقفون من هؤلاء الباعثين موقف التحذير والتنبية السلبى فقط ، دون ان يضعوا بين أيديهم البديل الذى لا انحراف ولا زغل فيه . فما الذى ينبغى ان ننتظره من هؤلاء الزاعمين الذين يبعثون عن ميلان يلجؤون اليه ، فرارا من لظى أهوائهم والمغريات التى تحدى بهم ؟

ان المتوقع منهم ان ينصرفوا في هذه السبل التى لم يجدوا امامهم بديلا عنها ، منهم ما قيل لهم عن الهدى والاعطاء التى فيها . ذلك لان شيئا ما خير من لا شيء ، ان لم يوقن العقل بذلك دائما ، فضع له الشعور بالحاجة الملحة في اكثر الاحيان .

وانما مثلهم في ذلك كمثل من أقبل ، في ظمأ شديد ، الى كأس من الماء يبرق أمامه ، ليشره فجاء من يحذره منها ، وينبهه الى ما قد يكون فيها من الشوائب والاقذار ، دون ان يقدم اليه بديلا عنها . ان من الطبيعى ان يعرض عن تحذير كل هؤلاء المحذرين ، وان يقبل بدافع من حرارة ظمئه اللاهب الى تلك الكأس فيشر بها حتى الثمالة . لأن حرارة ظمئه أشد سلطانا على نفسه من روية تفكيره وعقله .

* ومن هذه الاعطاء أيضا ، أن كثيرا منا عندما يقبل الى المكتبة الاسلامية ليفيد منها علما أو فكريا ويزداد ثقافة ووعيا لا يروق له من تلك الكتب والامهات الا تلك التى تخوض في مسائل العلم ، ونقارن بين المذاهب والآراء بالترجيح أو التفنيذ . . . معرضا عما هو موجود في كثير من تلك المصادر من الذلالم التربوى الأخاذ عن النفس الانسانية وأدائها والطسرق التربوية لمعالجتها وإصلاحها ، وعن (باطن الاثم) ومدى خطره في حياة المسلمين وعن سبيل التوغى منه .

كثيرون هم الذين يقرءون لابن القيم معالم الموقعين والطرق الحكمة وأمثالهما ، ويعرضون عن (مدارج السالكين) لشدة شغفهم بالمقارعة الحسية وزهدهم في معالجة النفس والوقوف على أمراض القلب وأخطار أسباب هلال الانسان .

وكثيرون هم الذين يستمتعون بمتابعة ابن تيمية فيما كتبه من موقع المناقشة والهجوم على مخالفيه في كثير من مسائل المنطق والفلسفة وعلم الكلام وقضايا الخلاف ، ولكن قليلون هم الذين وقفوا عند بعوثة المعركة في التصوف وكتاباته في طريق السلوك الى الله وسبيل تطهير القلب من الأمراض والآفات .

وما أكثر الذين يسمعون ان يدرسوا من ابن حنبل مواقفه الحركية انتصارا للحق ، ومواقفه الهجومية من الهدى والمبتدعة وأولى الاهواء ، غير انهم لا يقفون بأي دراسة أو تحليل عند ابن حنبل عابدا متتبلا غاشعا ذا كرا زاهدا في الدنيا ومظاهرا ، ملاحظا قلبه بالحراسسة والحماية ، مع ان شهادته في مواقفه البطولية تلك ، ليس الا من ثمرة دأبه على هذا الجهد النفسى الكبير .

*

*

*

وبعد ، فان مدار كل ما قد ذكرت وأوضحت ، على وجود شعلة الاخلاص لدين الله فى القلب . فان تحققت هذه الشعلة فما أيسر أن يتضح وجه الحق في كل ما قد ذكرت . . . والا فما أيسر أن يطوله النقد والنقض ، وان يتلاشى مضمونه في حزام النقاش والجدل حوله مدا وجسرا فاللهم أكرمنا بنعمة الاخلاص لوجهك ، وقنا فتنة النفس والهوى .

والحمد لله رب العالمين . . .